{إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} * {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا} * {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(1-3)

الوقوف: {و الفتح} هـ {أفواجًا} هـ لا {و استغفره} ط {توابًا} هـ.

التفسير: السورة المتقدمة اشتملت على نصرة الله بقوله

{يا أيها الكافرون}

[الكافرون:1] و على فتح مكة القلب بعسكر التوحيد، و على تسخير جميع القوى البدنية في طاعة خالقها بقوّة البراءة عن الأديان الباطلة كلها فقال الله سبحانه: نصرتني بلسانك فكان جزاؤه {إذا جاء نصر الله} فتح مكة في الظاهر و سخرت قواك لطاعتي فجازيناك بدخول الناس في دين الله أفواجًا. ثم إنه قابل هذه الخلع الثلاث بحكم تهادوا تحابوا بثلاثة أنواع العبودية إن نصرتك فسبح تنزيهًا لفعلي عن مشابهة المحدثات و تنبيهًا على أن لا يستحق أحد عليّ شيء، و إذا فتحت مكة فاحمد لأن النعمة يجب مقابلتها بالحمد، و إذا رأيت الناس قد أطاعوك فاستغفر لذنبك و هو الاشتغال بما عسى أن يقع من لذة الجاه والقبول وللمؤمنين والمؤمنات، لأنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر و كان احتياجهم إلى الاستغفار أشد. و قوله {إذا جاء نصر الله} معناه لا تذهب إلى النصر بل النصر يجيء إليك نظيره "زويت لي الأرض" يعني لا تذهب إلى الأرض بل تجيء الأرض إليك، و لا ترحل إلا إلى مقام قاب قوسين

{سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً}

[الإسراء:1] بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا، فإذا بقي الفقراء من غير مطية أسوق الجنة إليهم

{و أزلفت الجنة للمتقين غير بعيد}

[ق:31] و إنما قال في السورة المتقدّمة

{ما أعبد}

[الكافرون:3] و ههنا قال {نصر الله} إشارة إلى أنه يجب أن لا يذكر اسمي مع الأعداء حتى لا يهينوه و لكن اذكر اسمي مع الأحباب حتى يكرموه. و الفرق بين النصر و الفتح أن النصر أي الإعانة على تحصيل المطلوب هو الطريق، و الفتح هو المقصود، و لهذا قدم الأول على الثاني. و قيل: النصر كمال الدين و الفتح الإقبال الدنيوي له و لأمته كقوله

{أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي}

[المائدة: 3] وقيل: النصر هو الظفر على المنى في الدنيا و الفتح في الآخرة

{و فتحت أبوابها}

[الزمر: 73]وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم أبدًا منصورًا بالدلائل و المعجزات إلا أن الغلبة على قريش بل على أكثر العرب لما حصلت في هذا التاريخ صح التقييد به. ثم إن جمهور المفسرين و منهم ابن عباس ذكروا أن الفتح هو فتح مكة الذي يقال له فتح الفتوح. يروى أن فتح مكة كان سنة ثمان و نزول السورة سنة عشر و لم يعش رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد نزولها إلا سبعين يومًا و لذلك تسمى سورة التوديع، وقد اتفق أكثر الصحابة على أنها دلت على نعي الرسول صلى الله عليه و

سلم و فهمه بعض الصحابة منها، و خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد نزولها فقال: إن عبدًا خيرّه الله بين الدنيا و بين لقائه في الآخرة فاختار لقاء الله.

قالوا: و مما يدل عليه أنه ذكر مقرونًا بالنصرة و قد كان يجد النصر دون الفتح كبدر، و الفتح دون النصر كإجلاء بني النضير فإن فتح البلد لكن لم يأخذ القوم. أما يوم فتح مكة فاجتمع له الأمران، و صار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم **"و ذلك أنه صلى الله عليه و سلم وقف على باب المسجد و قال: لا إله إلا الله وحده صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خير، أخ كريم و ابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"** فسموا بذلك. و قيل: فتح خيبر. و قيل: فتح الطائف. و عن أبي مسلم: النصر على الكفار و فتح بلاد الشرك على الإطلاق. و قيل: انشراح الصدر للخيرات و الأعمال الفاضلة، و الفتح انفتاح أبواب المعارف و الكشوف. أما الذين قالوا إن الفتح فتح مكة و كان نزول السورة قبله على ما يدل عليه ظاهر صيغة إذًا فالآية من جملة المعجزات لأنها إخبار بالغيب و قد وقع. و اللام في الفتح بدل من الإضافة كأنه قيل: و فتح الله. قوله {و رأيت} ظاهره أنها رؤية القلب، و جوز أن تكون رؤية البصر فيكون {يدخلون} حالاً. و ظاهر لفظ الناس يقتضي العموم فيجيب أن يقدر غيرهم كالنسناس بدليل قوله

{أولئك كالأنعام}

[الأعراف:179] و سئل الحسن بن عليّ فقال: نحن الناس و أشياعنا أشباه الناس و أعداؤنا النسناس، فقبّله عليّ بين عينيه و قال

{الله أعلم حيث يجعل رسالته}

[الأنعام:124] قيل: إنهم لما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة و تقصير كثير فكيف استحقوا المدح بأنهم الناس؟ و أجيب بأنه إشارة إلى سعة رحمة الله فإن العبد بعد أن أتى بالكفر و المعصية سبعين سنة فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره قبل إيمانه كأن الرب تعالى يقول: ربيته سبعين سنة مات على كفره وقع في النار و ضاع إحساني إليه في سبعين سنة. و يروى أن الملائكة تقول لمثل هذا الإنسان: أتيت و إن كنت قد أبيت. و عن النبي صلى الله عليه و سلم **"الله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد و الظمآن الواردة"** و يجوز أن يكون المراد بالناس أهل اليمن على ما روي عن أبي هريرة انه لما نزلت السورة قال النبي صلى الله عليه و سلم: **"الله أكبر جاء نصر الله و الفتح. و جاء " أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم " الإيمان يمان و الفقه يمان و الحكمة يمانية"** و قال **"إني لأجد نفس الرحمن من جانت اليمن"** قال جمهور الفقهاء و كثير من المتكلمين: إن إيمان المقلد صحيح لأنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج و جعله من أعظم المنن على نبيه. ثم إنا نعلم قطعًا أنهم ما كانوا يعرفون حدوث الأجسام بالدلائل و لا صفات الكمال ونعوت الجلال،وكونه سبحانه متصفاً بها منزهاً عن غيرها ولا ثبوت المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه و سلم و لا وجه دلالة المعجزة على النبوة.

و عن الحسن: لما فتح رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة قالت العرب: لا يدي لنا به فقد ظفر بأهل مكة وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل و كل من أرادهم بسوء فأخذوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال. و لا شك أن هذا القدر مما يفيد غلبة الظن فقط. و الفوج الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا و اثنين اثنين. و روي أن جابر بن عبد الله بكى ذات

يوم فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: دخل الناس في دين الله أفواجًا و سيخرجون منه أفواجًا. ثم إنه أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار فكأنه صلى الله عليه و سلم ضاق قلبه عن تأخير النصر كما قال **{و زلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله}** [البقرة:214] فأمر بالتسبيح تنزيهًا لله عما لا يليق بكماله و حكمته و عنايته بخلقه، و أمر أن يكون التسبيح مقرونًا بالحمد لأن المقام يستدعي تذكير النعمة و هي الفتح و النصر و دخول الناس في الدين من غير متاعب الجهاد و مؤن القتال، ثم أمر بالاستغفار كفارة لما عسى أن يبدو و يدور في الخلد من ملاحظة حاله بعين الكمال، و كما أن التسبيح المقرون بالحمد نظر من الحق إلى الخلق فالاستغفار عكسه و هو التفات عن الخلق إلى الحق. و إنما فهمت الصحابة من السورة نعي النبي صلى الله عليه و سلم لأن كل كمال فإنه يدل على زوال كما قيل:

إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم

و يمكن أن يقال: إنه أمر بالتسبيح و الحمد و الاستغفار مطلقًا. و لا يخفى أن الاشتغال بهذه الأعمال يمنع من الاشتغال بأعباء التبليغ و بأداء ما كان يواظب عليه من رعاية مصالح الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر الرسالة قد تم و كمل بسبب الموت و الإلزام العزل. **"روت عائشة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد نزول هذه السورة كان يكثر أن يقول: سبحانك اللهم و بحمدك أستغفرك و أتوب إليك "** و في رواية: **"كان يكثر أن يقول في ركوعه: سبحانك اللهم و بحمدك اللهم اغفر لي "** وفي رواية أخرى **"كان نبي الله صلى الله عليه و سلم في آخر أمره لا يقوم و لا يقعد و لا يذهب و لا يجيء إلا قال: سبحان الله و بحمده. فقلت: يا رسول الله**

إنك تكثر من قول "سبحان الله و بحمده" قال: إني أمرت بها و قرأ السورة" و عن ابن مسعود أنه لما نزلت هذه السورة كان صلى الله عليه و سلم **"يكثر أن يقول: سبحانك الله و بحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم"**

و في الآية تنبيه على أن العاقل إذا قرب أجله و أنذره الشيب أقبل على التوبة و الاستغفار و تدارك بعض ما فات في أوان الغفلة و الاغترار. و في معنى الباء في قوله {بحمد ربك} وجوه للمفسرين منها: أن المراد قل سبحان الله و الحمد لله تعجبًا مما أراك من مقصودك. يقال: شربت اللبن بالعسل أي خلطتهما فشربت المخلوط. و منها أن الباء للآلة أي سبحه بواسطة تحميده لأن الثناء يتضمن التنزيه عن النقائص، و الدليل عليه أنه صلى الله عليه و سلم عند فتح مكة بدأ بالتحميد قائلاً الحمد لله الذي نصر عبده. و منها أن المراد فسبح متلبسًا بالحمدنية لأنك لا يتأتى لك الجمع بينهما لفظاً فاجمعهما نية. و قيل: سبحه مقروناً بحمد الله على ما هداك إلى تسبيحه كما روي أنه صلى الله عليه و سلم كان يقول: الحمد لله على الحمد لله. و قيل: الباء للبدل أي ائت بالتسبيح بدل الحمد الواجب عليك في مقابلة نعمة النصر و الفتح لأن الحمد لا حصر له

{و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها}

[إبراهيم:34] وقيل: فيه إشارة إلى أن التسبيح و الحمد لله أمر أن لا يجوز تأخير أحدهما عن الآخر لوجوب الإتيان بكل منهما على الفور كما لو ثبت له حق الشفعة و حق الرد بالعيب وجب أن يقول اخترت الشفعة بردّي ذلك المبيع. و قيل: الباء صلة أي طهر محامد ربك عن النقائض و الرياء. و في تخصيص الرب بالمقام إشارة إلى أن التربية هي الموجبة للحمد، أما الاستغفار فإن كان لأجل الأمة فلا إشكال، و إن

كان لأجل نفسه فإما للاقتداء و إما لترك الأولى والأفضل، و إما بالنظر إلى المرتبة المتجاوز عنها فإن السالك يلزمه عند الارتقاء في كل درجة يصل إليها أن يستغفر عما يخلفها. و في قوله {توابًا} دون أن يقول " غفارًا كما في سورة نوح إشارة إلى أن هذا النبي صلى الله عليه و سلم بل هذه الأمة امتثلوا فاستغفروا و تابوا فوجب على فضل الله قبول توبتهم بخلاف قوم نوح.